الفتوحات الإسلامية

3

ذات الصوارى

بقلم
عبد الحميد عبد المقصود

رسوم
إبراهيم سمرة



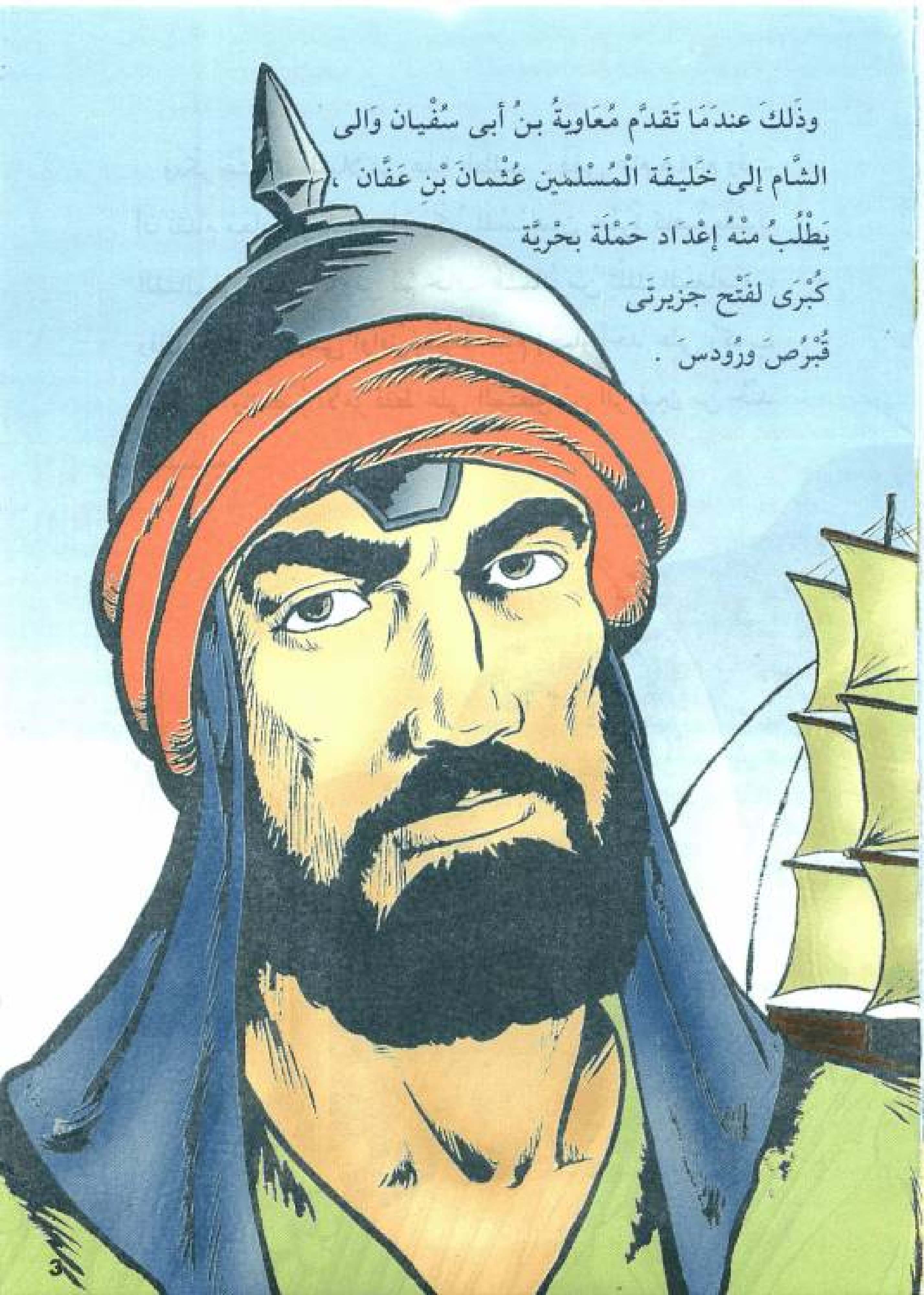
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
١٠ شارع كامل صدقي بالفجالة - القاهرة

يقولُ عَنْهَا الْمُؤَرِّخُون إنَّها مِنْ أعْظَم الْمَعارك البحْريَّة على مرِّ العُصور ، ويُضيفُ آخَرُونَ أنَّها أقْوَى معْركَة شَهدَها الْبَحْرُ الأبْيَضُ الْمُتَوسِّطُ مُنْذُ وَاقعَة أكْتيُوم الشَّهيرة عامَ ٣١ ق .م .

هى ذات الصَّوَارِى ، الْمَعْركة البَحريَّة الكُبرَى التى جَرَتْ عام ٦٥٥م بَيْنَ الْمُسْلمين بقيَادَة عَبْد الله بْن أبى سَرْح وقوات الإمبراطُوريَّة البيزَنْطيَّة بقيَادة قُسْطَنْطين بن هِرَقْلَ .

وقَد نُسجَتْ أحداثُ تلْكَ الْمَعْركَة قَبْلَ حُدُوثُها بوقْت طوِيل ،




وذَلكَ عندَمَا تَقدَّمَ مُعَاويةُ بنُ أبى سُفْيانَ وَالى
الشَّامِ إلى خَليفَةِ الْمُسْلمينَ عُثْمانَ بْنِ عَفَّانَ ،
يَطْلُبُ منْهُ إعْدَادَ حَمْلَةٍ بحْرِيَّةٍ
كُبْرَى لفَتْحِ جَزيرتَى
قُبْرُصَ ورُودسَ .

وفَكَّرَ عُثْمَانُ طَويلا فى هَذَا الطلب ، فَفى عام ٦٤٨م وقْتَ أن تَقدَّم مُعَاوِيَةُ بطَلَبه ، لَمْ يَكُنْ للْمُسْلمين خِبْرَةٌ كافيةٌ بفُنُون القتَال فى البحْر ، ومن ثَمَّ خَافَ عُثْمانُ منْ تلْكَ الْمُغَامَرَة ، وقال لمُعَاوية : إنّنى أوافقُ بشَرْط عدم إجْبار أحَد على رُكوبِ البَحْر ، ويقْتَصرُ الأمرُ فقط عَلى الْمُتَطوِّعيْنَ الرّاغبينَ منْ جُنْد الْمُسْلمينَ .

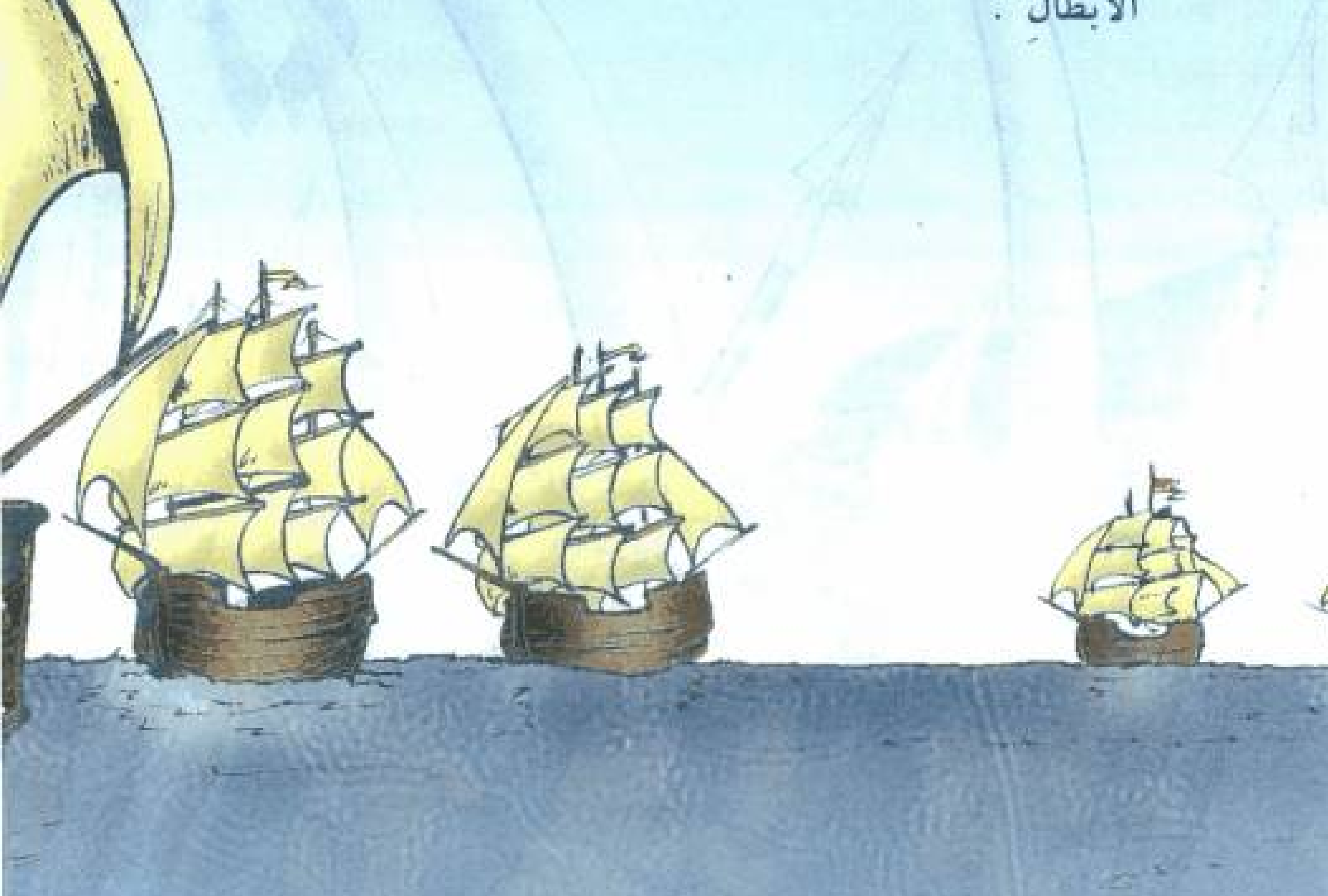


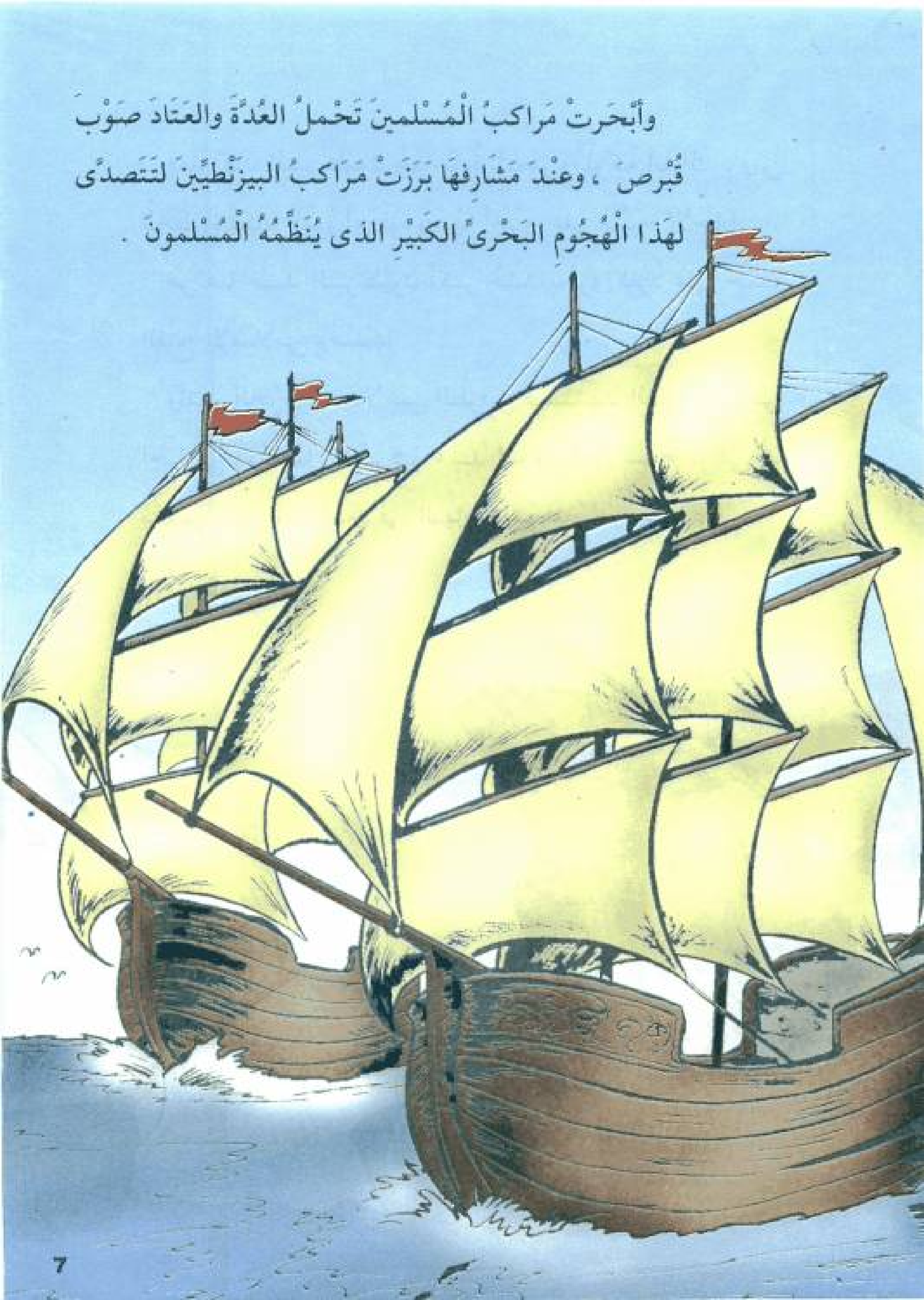


وعلى الفَوْر بَدأ مُعَاوِيَةُ بْنُ أبى سُفْيانَ يُجَهِّزُ حمْلتهُ ، فقَامَ بجمْع فَريق ضَخْم مِنَ الصُّنَّاع الْمَهَرة ، ليَصْنعوا السُّفُنَ الْمَطْلوبةَ . ثُمَّ أعْلنَ عقبَ ذلكَ نَفيرَ الحَرْب وطَلبَ مُتَطوِّعينَ لأداءِ تلكَ الْمُهمَّةِ الصَّعْبَةِ .

وكَانَتْ الْمُفاجَأةُ الكُبْرَى التى لَمْ يَكُنْ يتوقَّعُهَا أحدٌ ، هِىَ تلكَ الأعْدَادُ الْهَائلَةُ مِنَ الْمُتَطوِّعينَ التى جاءَتْ تطلبُ الاشْتِراكَ فى الحَمْلة ، جُمُوعٌ غَفيرَةٌ تَوالَتْ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ لتَكْتَملَ الأعْدَادُ المَطْلوبةُ للْحَملَةِ فى وَقْتٍ وَجيزٍ ، وعلى الفَوْرِ بَدأَ التَّدْريبُ والإعْدَادُ .

ثمَّ قرَّرَ مُعَاوِيَةُ خُرُوجَ الْحَمْلةِ تَحْتَ قيادَةِ القائدَيْنِ : أبى قَيْسٍ الحَارِثىِّ ، وعبدِ الله بْنِ أبى سَرْحٍ ، وهُمَا مِنْ قادَةِ الْمُسْلمِينَ الأبطَالِ .

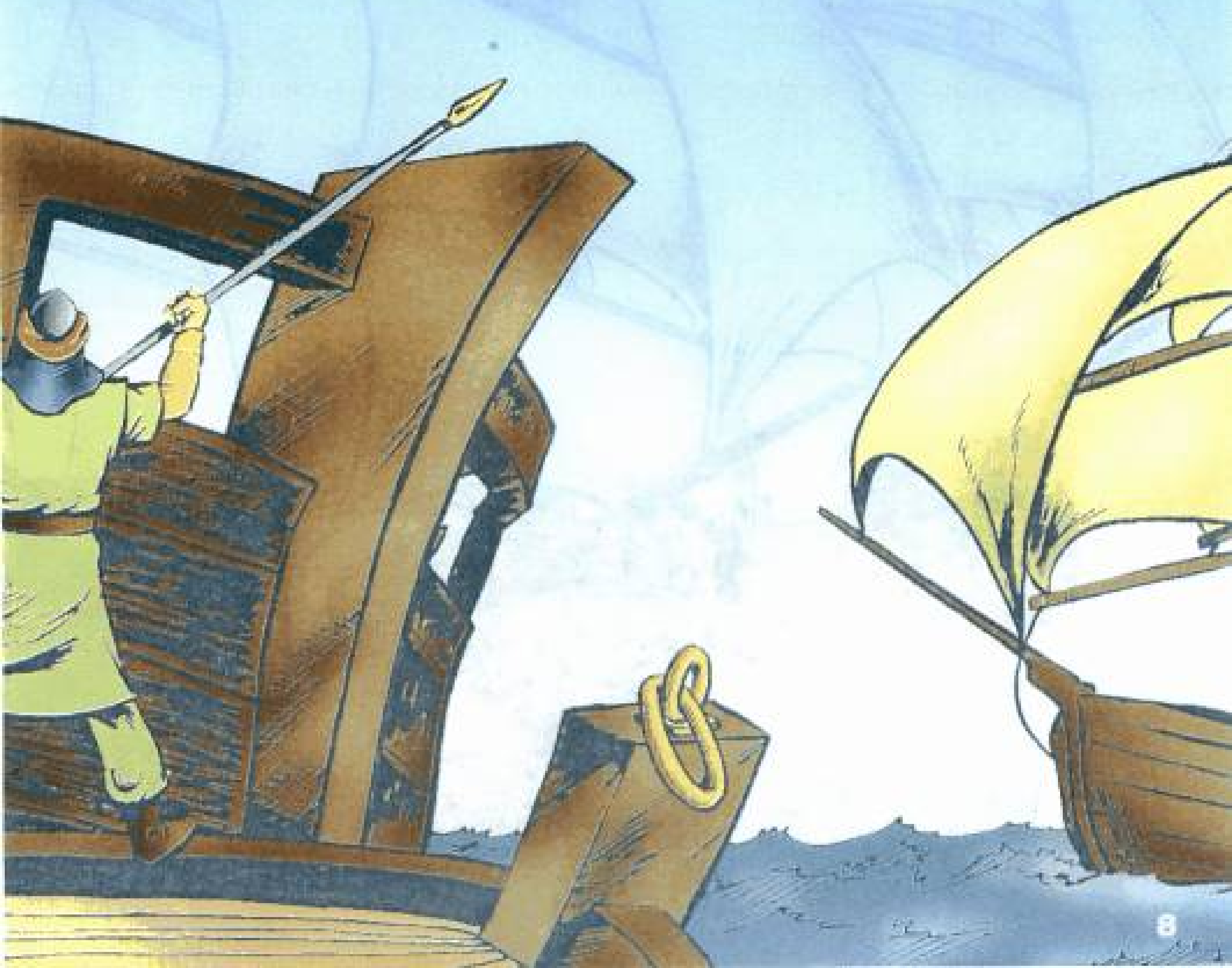


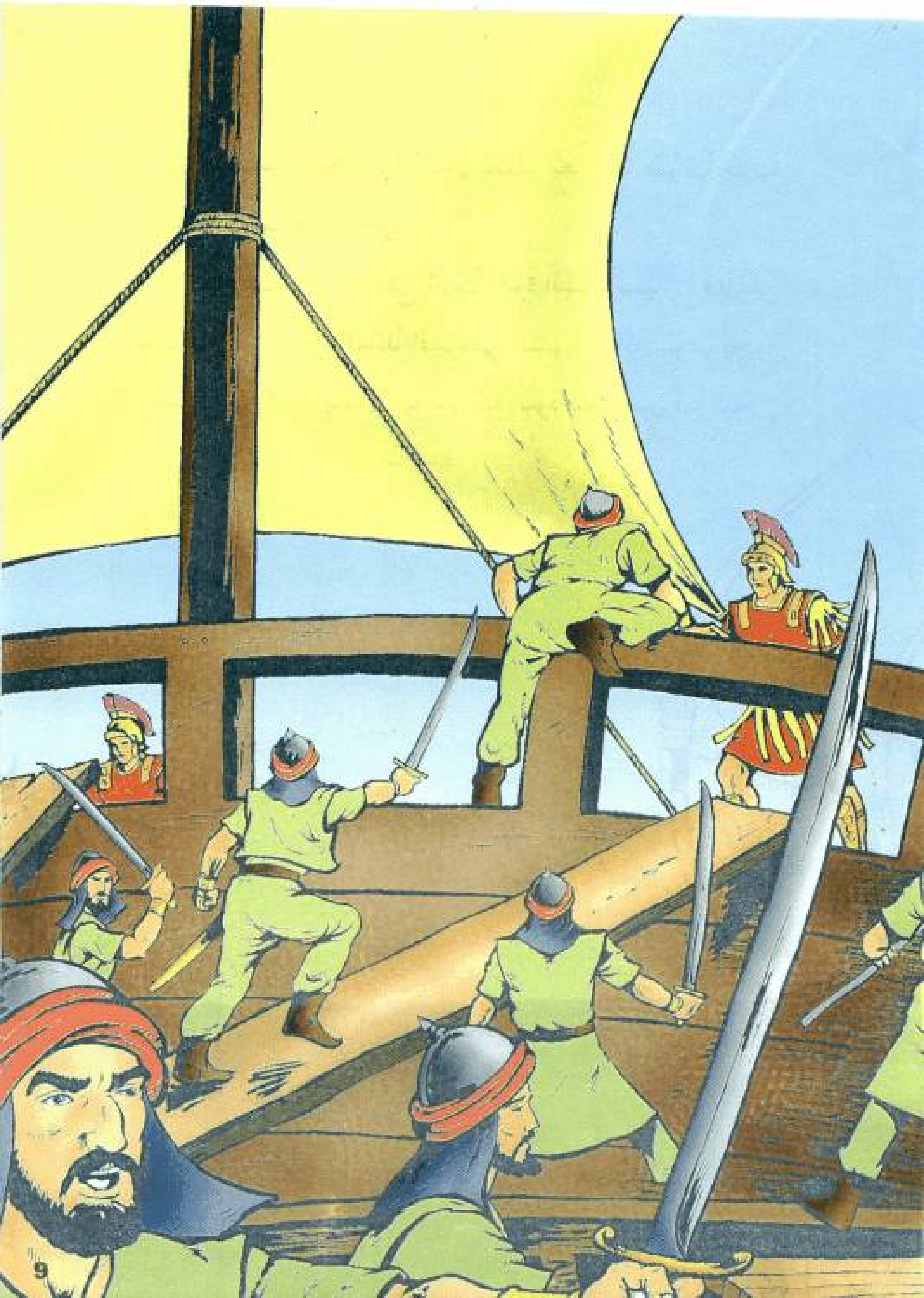

وأبْحرَتْ مَراكبُ الْمُسْلمينَ تحْملُ العُدَّةَ والعَتادَ صَوْبَ
قُبْرصَ ، وعنْدَ مَشارِفها برزَتْ مَراكبُ البيزَنْطيِّينَ لتَتصدَّى
لهَذا الْهُجُومِ البَحْرىِّ الكَبيرِ الذى يُنَظِّمُهُ الْمُسْلمونَ .

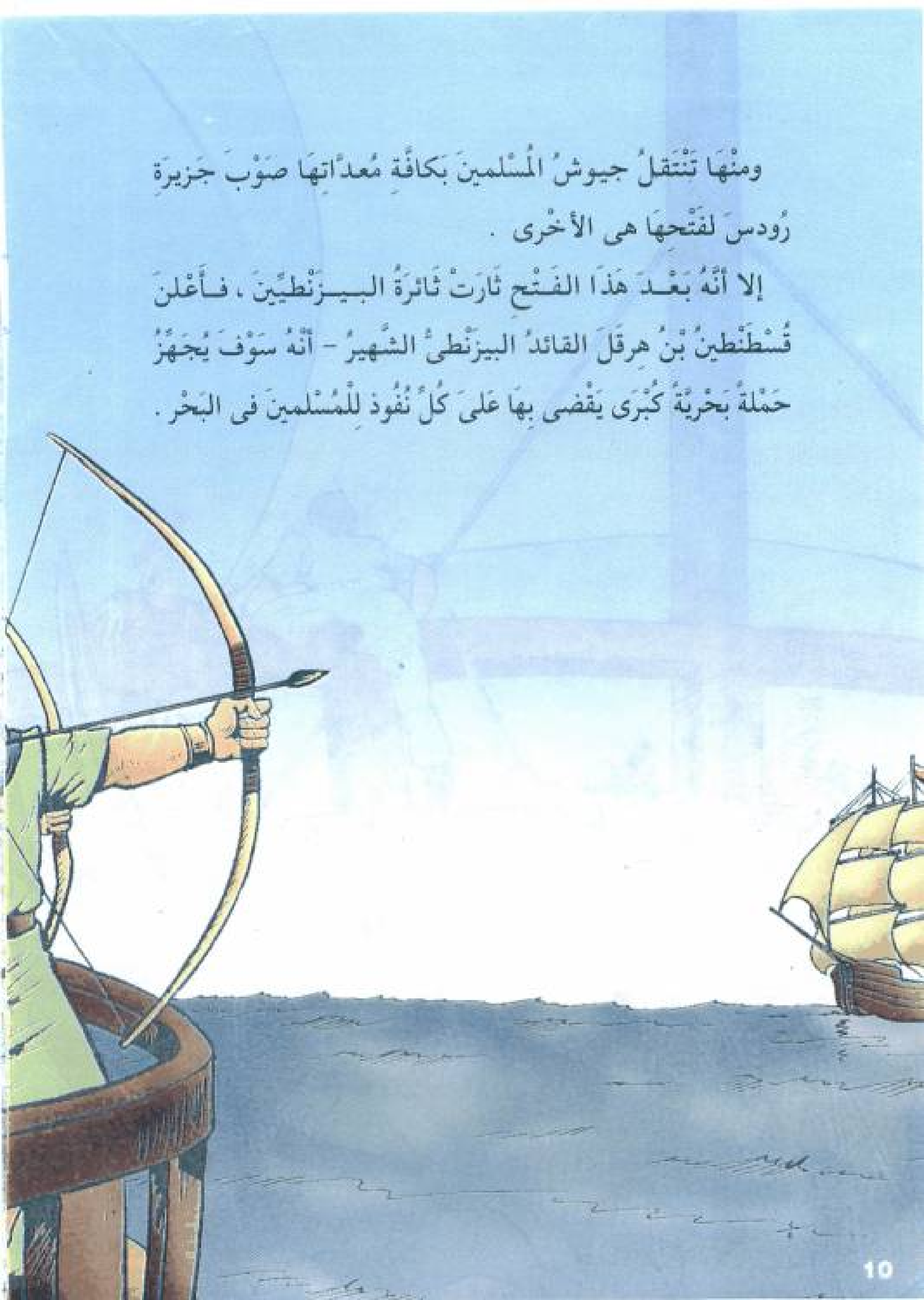
فقدْ كَانَ البيزَنْطيُّونَ هُمْ سَادَةُ البَحْرِ ومُلُوكَهُ آنذاكَ ، ومِنَ الْخُطُورَةِ بمكَانٍ ظُهُورُ أيِّ قُوَّةٍ بَحْرِيَّةٍ أخرَى على مَسْرَحِ الأحْدَاثِ .

مِنْ هُنَا حَشدَ البيزَنْطيُّونَ أكبرَ حَشْدٍ بَحْرى للرَّدِّ على حَمْلةِ الفَتْحِ الإسْلامى وصَدِّهَا .

وتَدورُ الْحَرْبُ سِجالا بيْنَ الطَّرفَيْنِ فيُسْتَشْهدُ القائدُ أبو قَيْسٍ الحَارثىُّ ، ويُكْمِلُ المَعْرَكَةَ عَبْدُ الله بْنُ أبى سَرْحٍ ، إلى أنْ يَنْتَصرَ جُنْدُ الْمُسْلمينَ فى النِّهاية ويَتمَّ فَتْحُ جَزيرةِ قُبْرصَ .

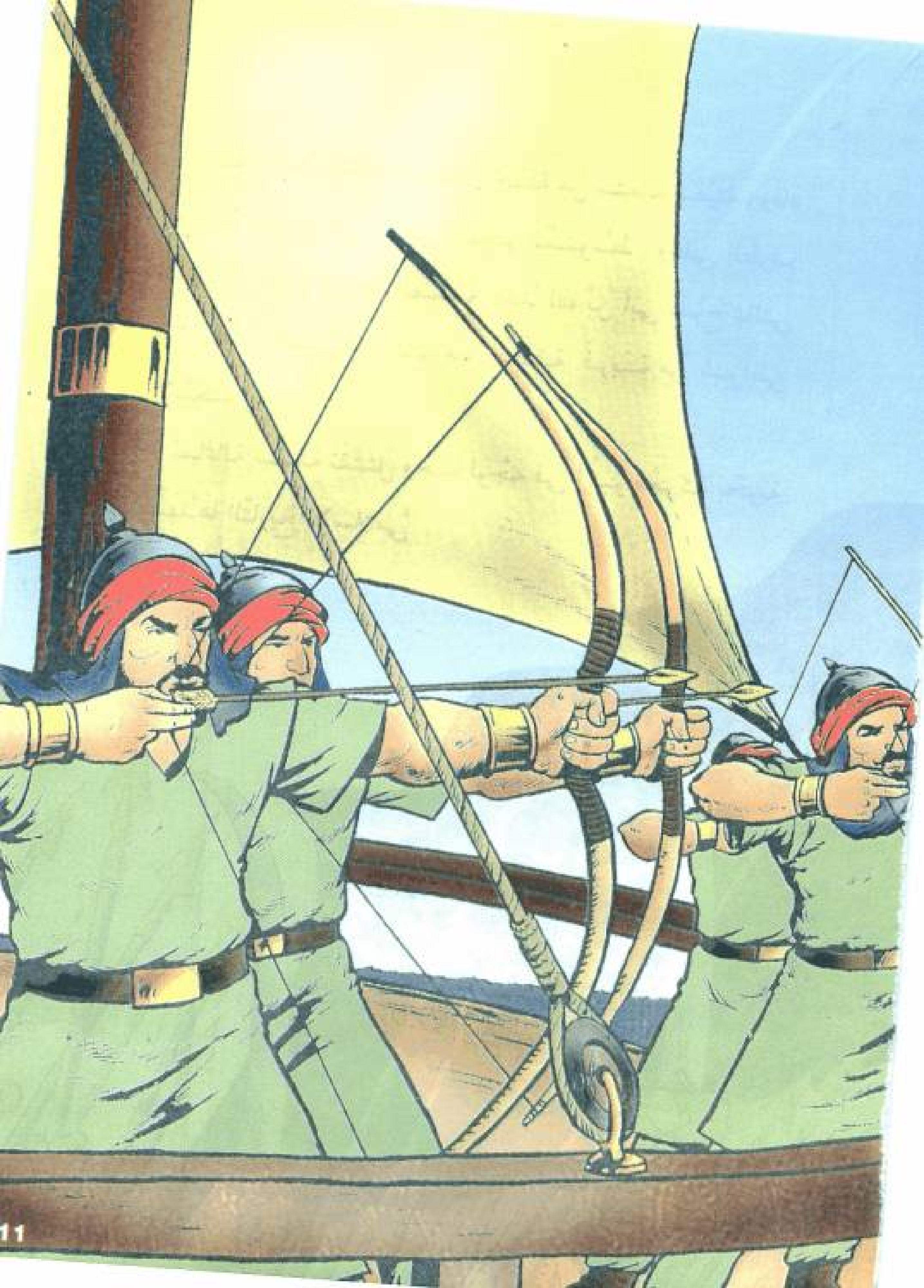






ومنْهَا تَنْتَقلُ جيوشُ المُسْلمينَ بكافَّةِ مُعدَّاتِها صَوْبَ جزيرةِ رُودسَ لفَتْحِهَا هي الأخْرى .

إلا أنَّهُ بعْدَ هَذَا الفَتْحِ ثَارتْ ثائرَةُ البيزَنْطيِّينَ ، فأعْلنَ قُسْطَنْطينُ بْنُ هِرقَلَ القائدُ البيزَنْطيُّ الشَّهيرُ - أنَّهُ سوْفَ يُجهِّزُ حَمْلةً بحْريَّةً كُبْرَى يَقْضِى بِهَا عَلى كُلِّ نُفُوذٍ لِلْمُسْلمينَ فى البَحْرِ .



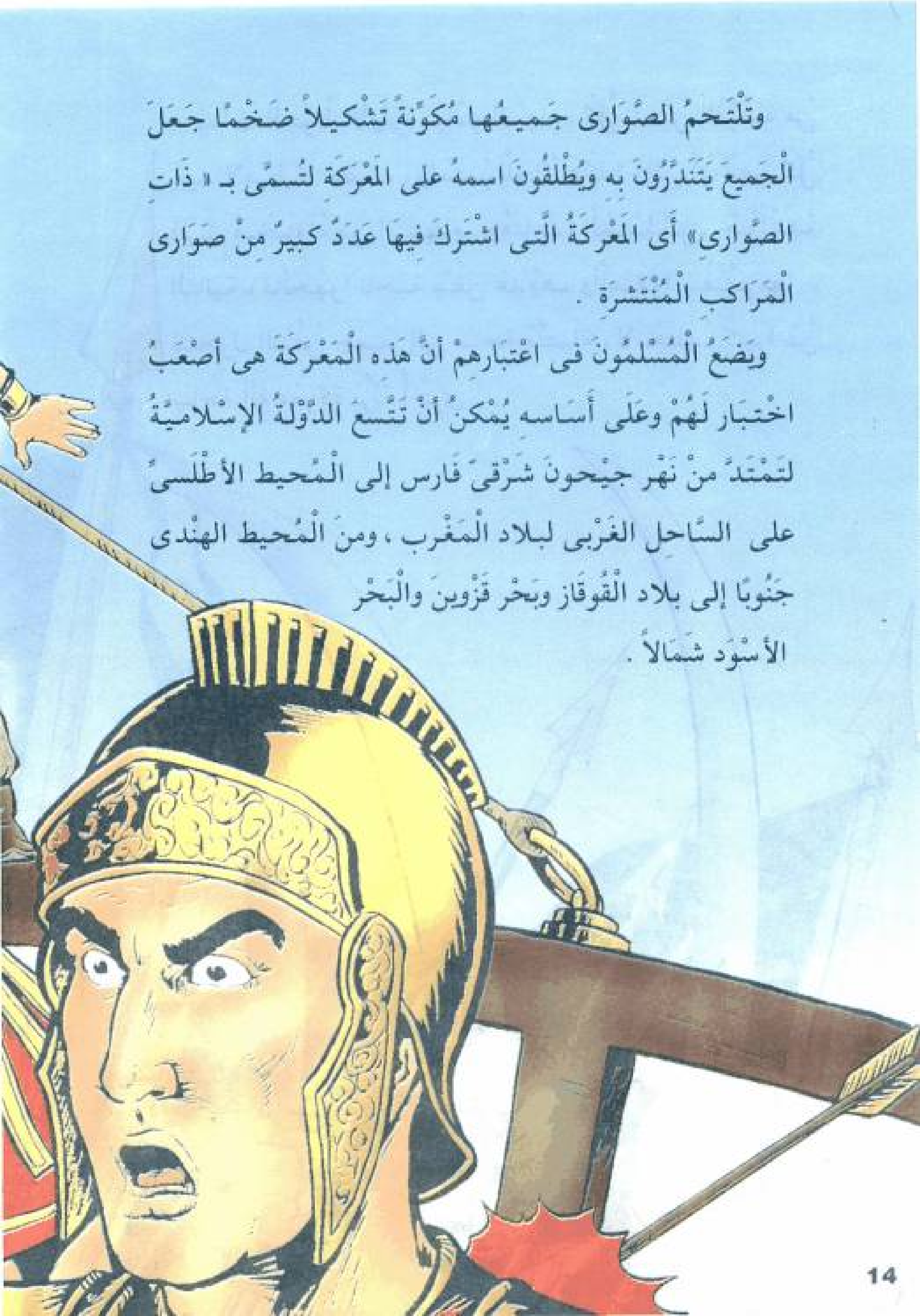


وبالْفعلِ أَعدَّ القائدُ البيزَنْطىُّ حَمْلةً مِنْ ستمائةَ سَفِيْنَة ، وقَادَ الْحَمْلةَ بنَفْسـهِ فى عرضِ البَحْرِ الْمُتوسِّطِ . وعَلَى الطَّرَفِ الْمُقَابلِ تَقدمَ القائدُ الْمُسْلمُ عبدُ الله بْنُ أبى سَرْح بمائتَى سَفِينَة ، ليَلْتَقِىَ الطَّرَفَانِ عنْدَ مِنْطَقة قَريبَة من شوَاطِئِ الإسْكَنْدَريَّة .

ثَمانمائة سَفِينَة تَقْتَتلُ وَجْهًا لوَجْهٍ فى أكْبر مَعْركة بَحْريَّة يَشْهَدُهَا التَّاريخُ الإسلامىُّ .

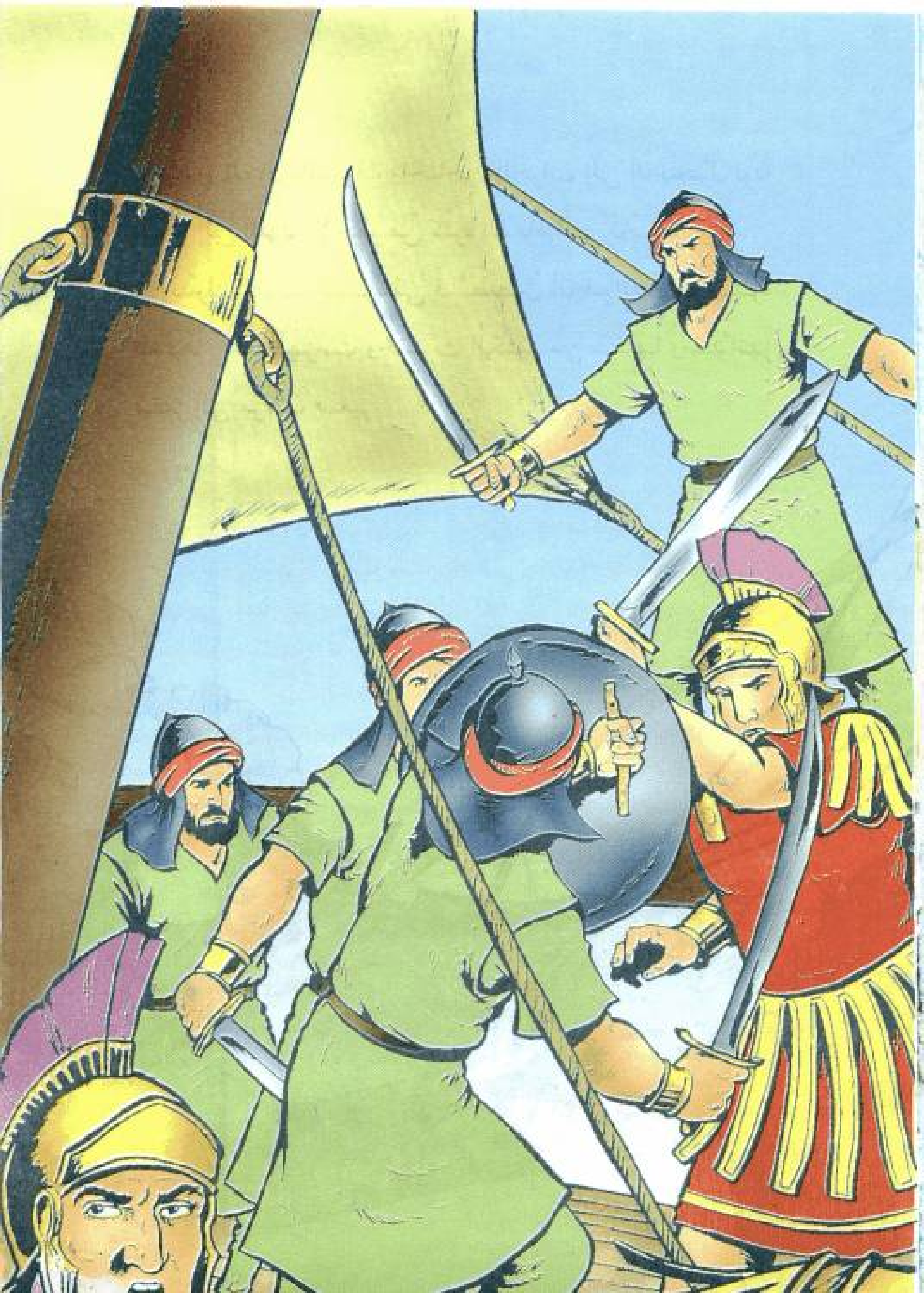
بَدَأَتْ الْجَوْلَةُ الأُولَى بِتَبَادُلِ السِّهامِ ، كُلٌّ يَتَحَيَّنُ الفُرْصَةَ مِنْ بَعِيدٍ لاصْطِيادِ خَصْمِهِ ، واسْتَمَرَّ الْحَالُ هَكَذا ، إلى أنْ أنْهى كُلُّ فَرِيقٍ مَخْزُونَهُ مِنَ السِّهَامِ ، وهُنَا بَدَأَ الْمُسْلِمُونَ جَوْلَتَهُمْ الثَّانِيَةَ ، فاتَّجَهُوا ناحِيَةَ سُفُنِ عَدُوِّهِم وأَلْصَقُوا سُفُنَهُم بِها ، لِتَتَحَوَّلَ السُّفُنُ جَمِيعًا إلى سَاحَةٍ مُتَّصِلَةٍ ، لاتَخْتَلِفُ كَثِيرًا عَنْ سَاحَةِ أيَّةِ مَعْرَكَةٍ بَرِّيَّةٍ أُخْرَى .





وتَلْتَحمُ الصَوارى جَميعُها مُكوِّنةً تَشْكيلاً ضَخْمًا جَعَلَ الْجَميعَ يَتَنَدَّرُونَ بِهِ ويُطْلقُونَ اسمهُ على المَعْركَةِ لتُسمَّى بـ « ذَاتِ الصَّوارِى» أى المَعْركَةُ الَّتى اشْتَركَ فِيهَا عَدَدٌ كبيرٌ مِنْ صَوارى الْمَراكِبِ الْمُنْتَشرَةِ .

ويَضعُ الْمُسْلمُونَ فى اعْتبَارِهِمْ أنَّ هَذِهِ الْمَعْرَكَةَ هى أصْعَبُ اخْتبَارٍ لَهُمْ وعَلَى أَسَاسهِ يُمْكنُ أنْ تَتَّسعَ الدَّوْلَةُ الإسْلاميَّةُ لتَمْتَدَّ مِنْ نَهْرِ جيْحونَ شَرْقىَّ فَارس إلى الْمُحيطِ الأطْلَسىِّ على السَّاحِلِ الغَرْبى لبلادِ الْمَغْربِ ، ومِنَ الْمُحيطِ الهِنْدى جَنُوبًا إلى بِلادِ الْقُوقَازِ وبَحْرِ قَزْوِينَ والْبَحْرِ الأسْوَدِ شَمَالاً .

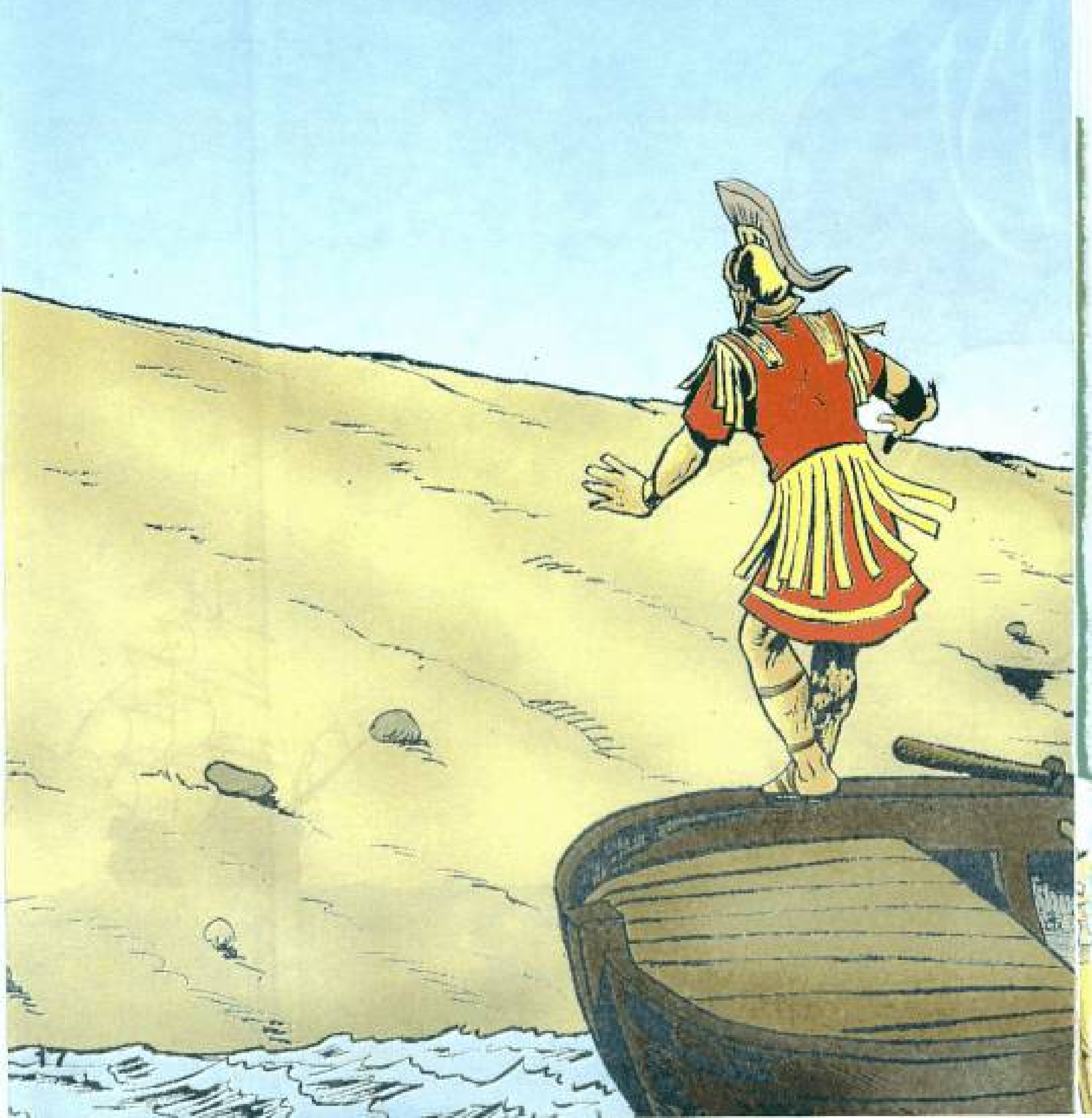


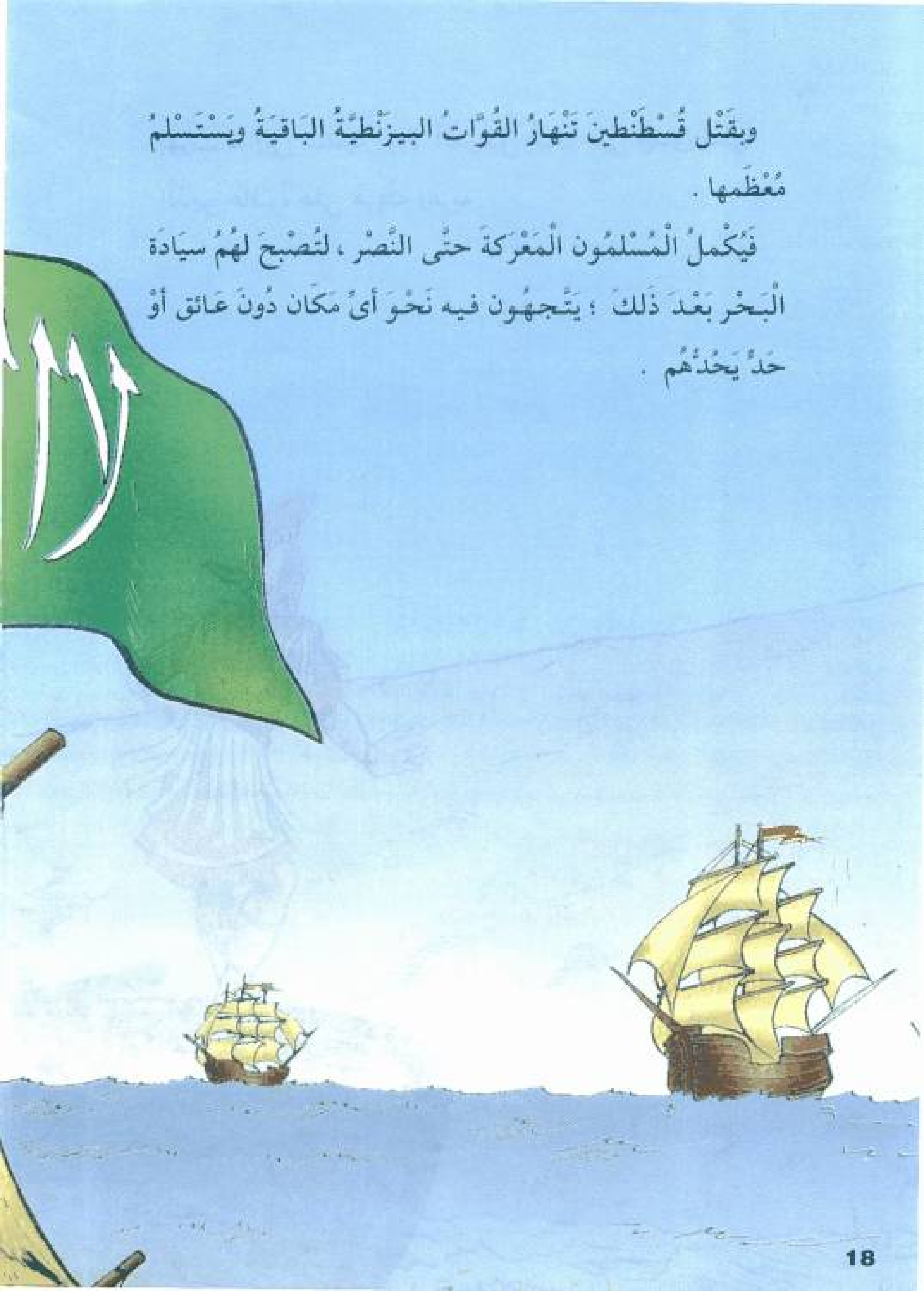
وَيَدُور الْقِتَال بالسُّيُوف والخَنَاجر والْحِرَاب إلى أن يَتَحوّل لَوْنُ الْبَحْرِ إلى اللَّوْن الأَحْمَر منْ كَثْرَة الدِّمَاء الَّتى تَخْتَلطُ بمِيَاهه .

وَيَدْرِكُ القَائدُ البيـزَنْطِىُّ قُسْطَنْطِينُ أن قُوَّاته - مَعَ كَـثْرَة عَدَدهَا - قَد انْهَزَمَت وخَسرَت الْكَثِير من سُفُنها ومُعَدَّاتها فَيَقْفِزُ إلى مَرْكَب صَغير



يَهْرُبُ به إلى صَقَلِّية ، إلا أَنَّهُ يُقْتَلُ هُنَاكَ عَلَى أَيْدى أَهْلِهَا
الَّذينَ عَاقَبُوهُ عَلى هَزِيمَته وهَرَبه .





وبِقَتْلِ قُسْطَنْطِينَ تَنْهَارُ القُوّاتُ البيزَنْطِيَّةُ البَاقِيَةُ ويَسْتَسْلِمُ مُعْظَمها .

فَيُكْمِلُ الْمُسْلِمُون الْمَعْرَكَةَ حتَّى النَّصْر ، لتُصْبِحَ لهُمُ سِيادَة الْبَحْر بَعْدَ ذَلِكَ ؛ يَتَّجِهُون فيه نَحْوَ أيِّ مَكَان دُونَ عَائِق أوْ حَدٍّ يَحُدُّهُم .





رقم الإيداع : ٣٦٣٦

الترقيم الدولي : ٧ ـ ٢٦٤ ـ ٢٦٦ ـ ٩٧٧